بسم الله الرحمن الرحيم

هناك لحظات عابرة في حياة الإنسان يصنعها القدر، ترسم حياته وتحدد مصيره. ولم أكن أعرف أن اللحظات القليلة التي تعرفت بها على يحيى الشاب الحاصل على شهادة الماجستير في الجيوهيدرولوجيا من جامعة أريزونا/أمريكا في بيت أخته في بغداد عام ١٩٦٧م هي ما يخبئه لي القدر من حياة مليئة بالتجارب، من حروب وحصار ومعارك وحياة ثورية، ومليئة بالحب والفداء والإخلاص والأمل. لحظات عابرة ولكنها كانت البداية لقصة حياتي معه. كنت حينها قد أنهيت دراستي الثانوية والتحقت بكلية طب الأسنان في جامعة بغداد. وبعد ثلاث سنوات ١٩٧٠ تقدم لخطبتي وأنا طالبة في بداية السنة الرابعة في الكلية. لم أكن أعرف عنه الكثير خلال هذه السنوات إلا ما كان يذكر أمامي عن طريق الصدفة.

لم تكن فترة خطبتنا بالهيّنة، حيثُ انقطعت أخبار يحيى عنا تماماً عندما خيّمت أحداث أيلول في عمان، قرر يحيى حينها ترك عمله في سلطة المصادر الطبيعية في الأردن ليهب كل وقته وجهده وتفكيره للمقاومة الفلسطينية. فغادر عمان متجهاً إلى جرش والأحراش ثم سوريا فلبنان حيث استقر هناك. وفي زيارة لي ولأهلي إلى لبنان عرفتُ عن طريق الصدفة أن كل أصدقاء يحيى وزملاء المقاومة كانوا يعرفونه بإسم صخر وليس يحيى، تأكدتُ حينها أن حياتي مع يحيى لن تكون بالعادية بل ستكون فصلاً من فصول الثورة الفلسطينية، فصلاً ذو نهاية من الصعب تنبؤها. كنتُ وعائلتي على قناعة تامة بأن ما يفعله يحيى ومن معه من ثوار من أجل فلسطين هو مفخرة لكل الشعب الفلسطيني في داخل الأراضي المحتلة وخارجها.

عندما أنهيت دراستي الجامعية في عام ١٩٧٢ تزوجنا وأقمنا في بيروت. وكانت بداية مرحلة جديدة في حياتي معه، مرحلة لم تكن بالسهلة نظراً للظروف الصعبة والوضع الحرج الذي كانت تمر به حركة فتح في لبنان. بدأت في أحداث أيار ١٩٧٣ واغتيال القادة الثلاثة كمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف النجار واغتيالات طالت خيرة الشباب داخل لبنان وخارجها. ثم حرب أوكتوبر ١٩٧٣ والحرب الأهلية في لبنان ودخول القوات السورية وحرب تل الزعتر. خلال هذه الفترة الحرجة كنت أعمل في جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني كطبيبة أسنان ثم رئيسة قسم الأسنان في الجمعية المذكورة لاحقاً. في الوقت الذي كان فيه صخر مشغولاً جداً بالعمل السياسي و التنظيمي (كان مشرفاً على تنظيم المليشيات وإنشاء مؤسسة الأشبال والفتوة قبل أحداث أيلول). ففي المؤتمر الثالث لحركة فتح عام ١٩٧١ انتُخب عضواً في المجلس الثوري ثم معتمد إقليم لبنان وأمين سر التنظيم. بعدها بسنوات انتُخب أمين سر مكتب القائد العام لحركة فتح ياسر عرفات عام ١٩٧٩. وفي المؤتمر الرابع لحركة فتح عام ١٩٨٠ انتُخب عضواً للمجلس الثوري وأمين سر المجلس الثوري لحركة فتح.

شارك صخر في المقاومة ضد الاجتياح الإسرائيلي على لبنان عام ١٩٨٢ والذي أدى إلى خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان إلى عدّة دول عربية ورحيل القيادة إلى تونس. في هذه الفترة كُنّا معه في لبنان من عام ١٩٧٢-١٩٨٢. عشنا معه كل ما مرت به لبنان من الحرب الأهلية إلى الاجتياح الإسرائيلي على لبنان في عمليّة اجتياح استمرت ثلاثة أشهر استعمل

الجيش الإسرائيلي خلالها كل أنواع الأسلحة المحرمة دولياً، واضطررنا إلى ترحيل أطفالنا الثلاثة إلى أقاربنا في دمشق خلال الحرب. وفي نهاية شهر آب ونتيجةً للمفاوضات بين جميع الأطراف، غادرت المقاومة الفلسطينية لبنان عن طريق البواخر. حاولتُ قبل نهاية الحرب مغادرة بيروت واللحاق بأولادي براً ولكن قوات الكتائب اللبنانية كانت تحاصر بيروت وتحكم سيطرتها حولها بمساعدة جيش الإحتلال الإسرائيلي. وبعد أن تعرضتُ للإهانة من قبل الكتائب اللبنانية لمجرد رؤيتهم اسم صخر حبش على حقيبة السفر قررتُ العودة إلى بيروت ومغادرتها مع صخر في باخرة الرئيس ياسر عرفات إلى أثينا. وبعد وصولنا إلى أثينا رافق صخرالسيد الرئيس إلى تونس وسافرت أنا إلى قبرص ثمّ سوريا لأكون مع أطفالي. وبعد شهرٍ تقريباً التحق صخر بنا والتمّ شملُ العائلة من جديد. ثم بدأت أحداث طرابلس في ١٩٨٣ ودخل صخر إلى طرابلس عن طريق قبرص ليكون مع الرئيس ياسر عرفات حتى انتهاء الحصار وخروج المقاومه إلى الدول العربية.

وفي عام ١٩٨٤ انتقلنا إلى تونس ثم موسكو حيث عُين سفيراً فوق العادة هناك. فالعودة إلى تونس. وفي عام ١٩٨٩ انتُخب عضواً للجنة المركزية في حركة فتح في المؤتمر العام الخامس للحركة، ثم تمّت اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٤، رغم أنه كان معارضاً لها إلّا أنه قرر الدخول إلى الوطن من غزة في عام ١٩٩٥، وكتب على إثرها قصيدته المشهورة لكنه وطني. ودخلت العائلة في العام الذي يليه إلى رام الله. وكان يحيى المنظّر الثوري لحركة فتح والمفوض العام للشؤون الفكرية والدراسات.

وكما كان صخر ينبوعاً من ينابيع المقاومة، كان رحمه الله ينبوعاً من ينابيع الفكر والثقافة وقاموساً لا ينضب في المعرفة في جميع المجالات سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية. لم يترك باباً في العلم إلّا وطرقه ولا طريقاً إلّا وسلكه، ولا كتاباً إلّا وقرأه. كان ثاقب الذهن وسريع البديهة، ذو هوايات متعدّدة. فلم يزدحم ملف إصداراته بدواوين الشعر والقصص والروايات والخواطر والرباعيات والمسرحيات فحسب بل بكم هائل أيضاً من الدراسات والكتب السياسية والتنظيمية والمقالات والمحاضرات والخطابات والمقابلات والملاحق الصحفية. كل هذا إلى جانب ولعه بالفن التشكيلي، فأخضع الألوان إلى سمفونية تشكيلية من نوع خاص. رسم لفلسطين كما كتب لها. فوازن في شخصيته بين السياسي والفنان، بين الصخر الجلمود والإنسان تماماً كما وازن بين حياته النضالية والعائلية. فبالرغم من مشاغله الكثيرة إلا إنه كان يجد الوقت الكافي ليكتب لي الرسائل والقصائد في مناسبات عدّة، قصائد ورسائل اعتبرتها كنز حياتي وحافظتُ عليها إلى أن حان الوقت لنشرها في كتاب بعنوان "لأنك زاهرة".

ففي المنزل كان يحيى الأب الحنون الذي بالرغم من ظروفه الصعبة ينتهز الفرص للتواجد مع أطفاله ومشاركتهم اللعب. زرع فيهم الأخلاق الحميدة والانتماء وحب الوطن وحب العائلة. كان الشاعر والفنان والرسام الذي يخلق جواً من المرح لأطفاله ويسعى لإطلاق مواهبهم وتنميتها بكل الطرق، من خلاله أبحروا في عالم الرسم والألوان الزيتية وعالم الكومبيوتر والبرمجة وعالم الموسيقى والشعر وعالم التمثيل والسينما، فكان يحيى يساعد أطفاله في كتابة نص مسرحيات

ويقوم الأطفال بدورهم بالإخراج والتمثيل، وفي يوم الجمعة يتحول المنزل إلى استوديو شبيه بخلية النحل فالكل مشغول بالملابس والمكياج والطعام والتمثيل والتصوير الذي كان يقوم به يحيى بنفسه.
كان يعتز بحبّه لأطفاله، نزار... في سمائه تورق الأشجار، يذكّره بصديق أخيه الشهيد أحمد الذي استشهد وهو طفل عام ١٩٤٨ إثر غارة إسرائيلية وكان لايزال ممسكاً بزهرة الحنّون. وأحمد يذكّره بأخيه الشهيد أحمد حبش، بطل عملية بتاح تكفا. أما كمال فيذكّره بالشهيدين كمال عدوان وكمال ناصر. ونوار هي نوارة العائلة التي كان يتغنى بها ففي شَعرها أنشودة الكنار.
أما يحيى الزوج، فهو شخصية رائعة، يمتلك قلباً طيباً للغاية، يحترم زوجته و يعتز بها في المنزل وخارجه. الأمين، الغيور، القادر على توفير الأمان لعائلته وحمايتها بالحب والوفاء والإخلاص. كانت شدّة يحيى وقسوته دائماً على حق. وكان يقدّر المرأة ويدعمها ويحترمها ويعمل على تمكينها. فالمرأة في حياته هي الأم والزوجة والإبنة والأخت. حيثُ كان دائما مع تعليم المرأة لأنه كان على يقين أنه وكل شباب فلسطين مشروع أسير أو شهيد وأن على المرأة أن تكون قادرة على قيادة العائلة والحفاظ على تماسك الأسرة في حال فقدان الزوج أو رب العائلة. حيث أنه كان مؤمناً أن المرأة الفلسطينية قادرة على التغيير وصناعة التاريخ من خلال قدراتها الذاتية.
كان حب يحيى لعائلته ينبع من حبه لفلسطين، فهو الذي قال في إحدى قصائده (من كتاب لأنك زاهرة)
من كان يحب الأرض .. ويحب الله يعرف كيف يحب...
يعرف كيف يموت من أجل من يحب...
لولا حبي للأرض...
لولا حبي لله...
لكنتُ يا حبيبتي، يا زاهرتي كاذباً إن قلتُ أنني أحبك...
فالحب يا حبيبتي فن جميل...

كان يعشق فلسطين فهي حبه الأول والأخير. حلم دائما بأرضها الخضراء وسمائها الزرقاء وبحرها وأمواجها، كان يحلم بالعودة إلى فلسطين جنة الزمان التي كان يعتبرها غابة عنفوان ويحلم بأطفاله يلعبون على أرضها بين ثرى الكروم وأشجار الزيتون ويحملون كمشة التراب ويسحقون غيمة السحاب لتكون لنا حياة، ودارنا يظلها الإباء والفخار (مقتطفات من كتاب لأنك زاهرة).
عندما نشرتُ مع العائلة كتاب لأنك زاهرة، كان أكثر تعليق سمعته عن الكتاب من الأصدقاء المقربون باندهاشهم أن صخر السياسي الصارم كان قادراً على كتابة كلمات رقيقة يشعر قارؤها أنها لم تنبع إلّا من قلب فاض حُباً وحناناً. فلقد عُرف صخر بالسياسي الصارم الحديدي الذي جُبل من الصخر. عبّر جيداً عن نفسه في أشعاره وكتاباته الثورية، فهو ابن فتح الذي في حياته ما هتف لغيرها. وكان متكلماً عنيداً مُدافعاً عن معتقداته وآراءه المتوازنة

والحكيمة والتي كانت دائماً تصب في مصلحة الوطن الواحد وتكريس الوحدة الوطنية وتحرير الأراضي الفلسطينية المحتلة والمحافظة على الثوابت الفلسطينية. كان صخر المفكر والمنظّر الثوري لفتح وكان دائماً يحرص على إعطاء رأيه داخل الأطر التنظيمية، فالنقد والنقد الذاتي والمركزية الديمقراطية هي أساس العمل الثوري. عُرف صخر السياسي وعرفته الإنسان. عُرف صلباً وعرفته عطوفاً حنوناً تترقرق عيناه بالدموع تأثراً بالمواقف الإنسانية. أحب كل الناس وكان دائماً مع الغائب، لم يسلك أبداً طرقاً ملتوية وكلمة الحق لم تفارق لسانه. مُحباً للخير والعطاء وكريماً إلى أبعد الحدود. لم يردّ في حياته إنسانا جاءه طالباً المساعدة. كان دائماً يردد، إعمل خير وارميه في البحر، وكان صبوراً متسامحاً يستمع إلى شكاوى الجميع وينصحهم بالمثل الشهير حط في الخرج، وعندما يسأله الناس خرجك ما امتلى يا أبو نزار، يقول لهم أنا خرجي واسع يمتلئ لكل الناس.
كانت قصائده ورسائله لي تبيّن مدى صدقه واعتزازه بنفسه وحبه لوطنه فلسطين. ففي قصيدة كتبها لي عام ١٩٧٢:
الفرق بين الموت والحياة .. يا حبيبتي
كالفرق بين يائسٍ يطأطئ الجبين
وثائر يقطّع السنين

كان مؤمنا بأن الله سبحانه وتعالى خلقه لهدف، يتضح ذلك في أبيات نظمها لي:
ما قيمة الأيام إن لم تُصنع الأمجاد من لحظاتها
ما قيمة الدنيا إذا لم نرسم التاريخ في بسماتها
ما قيمتي في هذه الدنيا.. إذا ضاقت عليّ .. على المدى خطواتها
إنّا سنُبحر يا حبيبة كي نصُبّ النصر في شُطآنها

لقد أخذه العمل السياسي من أجل فلسطين بقوّة حتى من أسرته، فكُنا نعيش معه ونؤازره وندعمه بكل الحب، فالحياة والظروف الصعبة والمصيرية التي كانت تمر بها حركة فتح كانت تحتاج منّا الوقوف معاً لمواجهة كل التحديات من أجل تحقيق أهداف الثورة الفلسطينية وتحرير الأراضي الفلسطينية المحتلة.

كان يحيى عظيماً في حياته فكانت لكل لحظة معه ذكرى خاصة ولكل بسمة وقبلة تاريخ. رسم القدر طريق حياته وهو بدوره لم يعاندالقدر. شاء الله عز وجل ليحيى أن يحفر في ذاكرة عائلته قدراً من التاريخ والذكريات تضاهي في قيمتها تلك التي نقشها على ذاكرة فلسطين ففي السنوات الأربع الأخيرة من حياته والتي أبعدتهُ عُنوةً عن نشاطة السياسي بسبب المرض، والتي قضاها بيننا بعيداً عن السياسة سواء هنا في الوطن أم خارجه كانت من أحلى سنوات العُمر وكأنهُ أراد قبل رحيله أن يترُك لكل واحد منا صندوق ذكرياته الخاص به فاحتضن كل منا الآخر بلوعة المشتاق.

فبعد حياة حافلة ومليئة بجميع أشكال المعاناة من اللاجئ الذي يبحث عن حياة، إلى القائد الذي يكرس مبدأ الوحدة الوطنية منهجية حياته، انسحب بهدوء من مسرح الحياة في صباح ٢٠٠٩/١١/١ بعد ليلة هادئة ولطيفة وكان ضاحكا وسعيداً ولم نكن نعلم بأنها ستكون الأخيرة، ولم يستيقظ عند آذان الفجر للصلاة. كان عظيماً في حياته وكان عظيماً في مماته.

يحيى يا أحن الخلائق، ستظل ذكراك العطرة في خافقي وستبقى ذكرياتنا معاً زادُ حياتي وستبقى رسائلك و قصائدك كنز حياتي الذي أعتز به، وستبقى في قلوبنا دائما وإلى الأبد. نُعاهدُك على أن نحافظ على إرثك السياسي ومبادئك العظيمة ونعاهدك على أن نستمر على خُطاك من أجل الوحدة الوطنية والثوابت الفلسطينية التي استُشهد من أجلها شُهدائنا الأبطال وعلى رأسهم الشهيد الرمز حبيبك ياسر عرفات ونعاهدك على ان نزرع في أولادنا حب فلسطين وسنذكرهم دائماً بجدهم صخر حبش كم كان عظيما وحنوناً وتقيّاً وبراً بوالديه وعائلته ولم يكن جباراً عصيّا. فسلامٌ عليك يحيى يوم ولدت ويوم احتضنك تراب فلسطين الذي طالما حلمت به وسلام عليك يوم تُبعُث حيّا. أسكنك الله فسيح جناته وجمعنا وإياك في جنات الخلد إنشاء الله.

و السلام عليكم و رحمة الله وبركاته

زوجتك المحبة
د. زاهرة حبش